Castles and Fortresses in Bilad Al-Sham during the Crusader Rule in the Book of Al-Idrisi's 'Nuzhat al-Mushtāq fi Ikhtirāq al-Āfāq' (Died 560AH/1164AD):

Mona M. I. Mosa
monamimosa00@gmail.com
University of Sharjah - College of Arts - Social and Human Sciences - Department of History and Islamic Civilization- United Arab Emirates
Prof. Mamoun Saleh AbdulKarim, Ph.D
mabdulkarim@sharjah.ac.ae
Specialization: Pre-Islamic Archeology and History (Roman and Early Byzantine before Islam)
University of Sharjah - College of Arts - Social and Human Sciences - Department of History and Islamic Civilization- United Arab Emirates

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v1i148.4298

Abstract

Al-Idrisi dealt with an accurate description of the geography of the cities and terrain of the Levant and the nature of its people, as he visited it. The submission of some parts of which is to the Crusader occupation, therefore; he is considered among the most important historians who dealt with that important and critical era and referred to the conditions of the Levant under the Crusader rule. The research adopted the methodology of historical research in its two parts, description, and analysis, which is based on collecting scientific material related to the subject of research from its various sources, then interpreting it, deriving facts from it, defining its dimensions, and analysing it in order to reach the consequences of it, then arranging and formulating it to produce it in its final form. The research relied on several sources in addition to contemporary sources related to the subject of the research.

Keywords: Al-Idrisi, castles, fortresses, Levant, Croisades.

القلاع والحصون في بلاد الشام إبَّان الحكم الصليبي من خلال كتاب الإدريسي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م): (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)

الباحثة منى محمد ابراهيم محمد موسى
جامعة الشارقة – كلية الآداب
والعلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم التاريخ والحضارة الإسلامية
الإمارات العربية المتحدة

الأستاذ الدكتور مأمون صالح عبدالكريم
التخصص: الآثار والتاريخ قبل الإسلام
(الروماني والبيزنطي المبكر قبل الإسلام)
جامعة الشارقة – كلية الآداب والعلوم
الاجتماعية والإنسانية
قسم التاريخ والحضارة الإسلامية
الإمارات العربية المتحدة

(مُلَخَّصُ البَحث)

يتضمن البحث دراسة نصوص الجغرافي الإدريسي فيما يخص القلاع والحصون في بلاد الشام وطبيعة أهلها خلال مدة خضوع بعض المناطق والقلاع والحصون للاحتلال الصليبي، ويعد الإدريسي من بين أهم الجغرافيين الذين تحدثوا عن تلك الفترة التاريخية المليئة بالأحداث حول الصراع بين الصليبيين والمسلمين؛ كما تضمن البحث وصف بعض القلاع والحصون الصليبية في بلاد الشام من خلال وصف الأماكن في كتابه: (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)،فضلا عن ذلك اعتمد البحث على منهج البحث التاريخي الوصفي، الذي يقوم على جمع وقراءة المادة العلمية المتعلقة بموضوع البحث وتحليلها، واستنباط الحقائق منها ثم ترتيبها وصياغتها لإخراجها في شكلها النهائي.

الكلمات الدالة: الإدريسي، القلاع، الحصون، الشام، الصليبيين.

المقدمـــــــة:

يعد الشريف الإدريسي من أهم الجغرافيين الذين كتبوا حول تاريخ بلاد الشام خلال القرن الثاني عشر، وهو ينتمي بنسبه إلى بيت الأدارسة العلويين، على الرغم من هذا النسب والشهرة فإننا لا نملك ما يكفي من المعلومات التفصيلية المتعلقة بجوانب عديدة من حياته، وأكثر المعلومات التي حصلنا عليها جاءت في كتابه: (نزهة المشتاق) وبعضها أتت من المعلومات الشفهية التي تم ترددها، ولكن بقيت مجهولة المصدر. اكتسب الإدريسي خبرة كبيرة ومعرفة من خلال السفر الدائم وانتقاله بين مختلف البلدان التي زارها، إذ زار العديد من المناطق في أوروبا، فجاب الأندلس ومدينة لشبونة وسواحل فرنسا الغربية والجنوبية وإنجلترا الجنوبية وآسيا الصغرى وغيرها الكثير، كما زار معظم البلدان في شمالي أفريقيا، وسافر إلى

العديد من المناطق في المشرق العربي منها: الحجاز ومصر وأرجاء بلاد الشام، وترك معلومات هامة فيما يصف الساحل الشامي وكذلك الظهير الشامي، وما فيهما من مدن ومزارات مسيحية وإسلامية وحصون وقلاع حربية ودوَّن ذلك في كتابه :(نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) الذي ألَّفه للملك (روجر الثاني) (Roger II) (١٠٩٥ – ١١٥٤م) ملك صقلية، وفي الواقع إن أعمال الإدريسي التي أنجزها تحت رعاية ملوك النورمان تمثل خطوة هامة في تطور علم الجغرافيا لذا اعتبر الإدريسي من أهم وأعظم الجغرافيين في العصور الوسطى.

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث في المعلومات الواردة في كتاب الإدريسي بالوصف والتحليل عن عدد من القلاع التي تعود إلى مدة الحروب الصليبية، إذ مثلت مشاهدات الإدريسي لها مصدراً تاريخياً هاماً للتعرف على طبيعة الساحل الشامي ولاسيما القلاع والحصون التي كانت موجودة خلال تلك المدة. لقد وقف هذا الجغرافي من خلال السفر والترحال على صحة المعلومات التي وردت سابقاً، خاصة المتعلقة ببلاد الشام خلال مدة الصليبيين ثم أضاف إليها وصحّح أخطاءها حتى أصبحت معلوماته من أهم المصادر التاريخية في علم الجغرافية.

أسباب اختيار هذا الموضوع:

يهدف هذا البحث إلى التعرف على الجوانب الحربية في بلاد الشام خلال مدة الاحتلال الصليبي من خلال كتاب الشريف الإدريسي :(نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للوصول إلى إجابات لمجموعة من التساؤلات من أهمها:

- ما هي الأسباب والظروف التي أدت إلى نشأة تلك القلاع والحصون؟ وهل نجح الصليبيون في فرض سيطرتهم على بلاد الشام من خلال تلك المنشآت الحربية؟ وما العقبات التي واجهها الصليبيون في بناء تلك القلاع؟
- متى تأسست هيئة الداوية؟ ومن أسسها؟ وما هو الهدف من نشأتها؟ وهل ساعدت الصليبيين في الاحتفاظ ببلاد الشام مدة طويلة في أيديهم؟ وهل أشار الإدريسي إلى اعتداءات الصليبين على أحد المقدسات الإسلامية من خلال تحويلهم المسجد الأقصى ليكون مقرًا فرسان الداوية ومستودعًا لذخائرهم؟

أهداف البحث وأهميته:

- توضيح الدور الذي قام به القادة الصليبيون في بلاد الشام ومشاريعهم في نشأة الحصون والقلاع، وهل استطاع هؤلاء من خلال تلك الاستعدادات الحربية أن يحققوا أهدافهم أثناء مدة الصراعات بينهم وبين المسلمين؟

- توضيح العلاقة بين هيئة الداوية والنبلاء في بلاد الشام والعالم المسيحي، وما لاقته تلك الهيئة من دعم مادي وثقافي ومعنوي من جميع أنحاء أوروبا في مدة صراعهم مع المسلمين.
- دراسة النصوص التي أوردها الإدريسي في كتابه: نزهة المشتاق المتعلقة ببلاد الشام من خلال الجوانب الحربية الصليبية، وتوضيح موقفه من تلك التجهيزات الحربية والاعتداءات المشينة على المقدسات.
- المساهمة في كتابة بحث جديد يخدم المكتبة العربية في مجال الجغرافيا والتاريخ.

مصادر ومراجع البحث:

اعتمد البحث – إلى جانب كتاب: نزهة المشتاق– على عدة مصادر رئيسة متنوعة كالمصادر العربية، ومن أهمها كتابات ابن الأثير وأبي الفداء، وياقوت الحموي وغيرهم، فضلاً عن المراجع والدراسات العربية والأجنبية.

مفهوم الحصن والقلعة:

لغةً: هي الحماية والوقاية.

اصطلاحاً: هي أحد أنظمة البناء العسكرية أو الأبنية التي يتم تصميمها بغرض الدفاع والحماية لمختلف الأراضي في ظل الحروب، ويتم استخدامها بغرض ترسيخ الحكم في مختلف المناطق في أوقات السلم.

الفرق بين مفهومي الحصن والقلعة

يكمن الفرق بين كل من الحصن والقلعة هي أن: الحصن يستعمل لغرض توفير الحماية المنيعة للمناطق في مراحل الحروب التي تمت إقامتها بصورة دائمة، أو بصورة غير دائمة ومؤقتة.

أما القلاع فقد استخدمت كمباني للسكن محصنة وضخمة مبنية بجدران محصنة ذات قوة لتوفير الحماية لقاطنيها من الهجمات المحتملة أثناء الحروب والأزمات،فضلا عن للأسوار المزودة بالأبراج الحصينة لتزيد من مناعتها وقوتها، كما تحيط بها الخنادق لتتمكن من حماية السكان من مختلف الهجمات.[١]

أهمية ووظيفة القلاع والحصون

تعد القلاع والحصون من أهم المباني على مر العصور التي بنيت فيها، وذلك لعدة أسباب منها:

[١] حميد نهى: مقاومة حمص للغزو الصليبي منذ بدايته حتى معركة حطين (٥٨٣- ٤٩١ هـ- ١١٨٧-١٠٩٦م). مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية- سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، ٤٢(٤)، ١٥٥- ١٧٢.

١. استخدمت القلاع والحصون بشكل دائم كمنازل للحرس والجنود.
٢. انتشرت القلاع على الحدود الفاصلة بين الدول لتأمين الحماية والأمان لتلك المناطق من الاعتداءات لتكون مراكز دفاعية متقدمة.
٣. لقد تمثلت القلاع خلال السلم والحروب مصدراً مهماً للنفوذ والقوة للإمبراطوريات والمماليك خلال العصور القديمة.
٤. لعبت القلاع والحصون دوراً مفصلياً في تأمين الحماية المستدامة ضد أي تهديد متمثل بالتسلل أو الاعتداءات أو الهجمات المفاجئة من الأعداء.[٢]

هيئة الداوية في ضوء كتابات الإدريسي:

لقد تميز المشرق الإسلامي بالغنى المعماري من خلال تطور فن العمارة في مجالات مختلفة سواء كانت ذات طابع حربي أو ديني أو مدني، لذا عندما احتلّ الصليبيون أجزاء من بلاد الشام اكتشفوا هذا الغنى المعماري وبالأخص القلاع والحصون الدفاعية التي كانت تتمتع بها الكثير من المناطق في بلاد الشام. لقد كانت لقوة حصانة مدينة أنطاكية دوراً كبيراً ومساهمة فعالة في إفشال الحملة الصليبية الأولى[٣]، ولولا خيانة (فيروز الأرمني) أحد حراس الأبراج الذي تواصل مع القائد الصليبي (بوهيمند) ([٤] (Bohemond الذي قام بدوره بفتح أبواب الحصن مقابل رشوة، مما مهد الطريق لدخول القوات الصليبية إلى الحصن وأدى إلى سقوطه، وعندما سقطت مدينة أنطاكية أصبحت بلاد الشام معرضة لهجمات الحملة الصليبية الأولى والمؤرخة بسنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م .[٥]

لم تكن العلاقة بين الفاطميين في مصر جيدة بل كانت عدائية مع السلاجقة الذين كانوا يسيطرون على بلاد الشام خلال فترة الحملة الصليبية الأولى على تلك البلاد، لذا حاول الفاطميين التنسيق مع الصليبيين ضد السلاجقة أملاً في الحصول على امتيازات منهم، لكن في النهاية رفض الصليبيون طلب الخليفة الفاطمي (المستعلي بالله) (٤٦٦ هـ /١٠٧٤ م –

---

[٢] المصدر نفسه، ص ١٦٠.

[٣] مُؤيّد الدين ياغي سيان بن مُحمَّد بن ألب السُلجوقي (١٠١١ - توفي ٢ يونيو ١٠٩٨) ابن أمير أنطاكية محمد بن ألب. عينه ملك شاه الذي استولى على أنطاكية عام ١٠٨٥ أميراً أو والياً عليها حوالي عام ١٠٩٠. في وقتاً لاحق من عام ١٠٩٧، تشاجر رضوان مع جناح الدولة. كان الاثنان على وشك الاقتتال في شيزر عندما وصلت أنباء الحملة الصليبية، وتراجعت جميع الأطراف إلى أراضيها استعدادًا للهجمات الصليبية.

[٤] بوهيموند الأول (بالفرنسية: Bohémond de Tarente) (كالابريا، إيطاليا، حوالى ١٠٥٨ - أنطاكية، ٣ مارس ١١١١). أمير تارانتو ثم أنطاكية بعد مشاركته في الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦ واستيلائه على أنطاكية. (كان الأمير أسامة بن منقذ (١٠٩٥-١١٨٨م) يسميه في كتابه الاعتبار ميمونًا، انظر ص.١٣٧ ط.المكتب الإسلامي)

[٥] انظر: مقدم محمد عبد الله: الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية، دار العالم العربي، ٢٠٠٩م، ص١٩٥؛ أبو ديَّة أيوب: حروب الفرنج حروب لا صليبية، الفارابي للنشر، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ١٢٠؛ محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٥٢.

٤٩٤ هـ /١١٠١ م) من استلام بيت المقدس[٦] . لاحقاً بعد احتلال الصليبيين لبيت المقدس عملوا على بناء قلاع وحصون جديدة لتمكينهم من الهيمنة والسيطرة على مناطق عديدة من بلاد الشام.[٧]

قدم الجغرافي الإدريسي في كتاباته الكثير من الإشارات الهامة فيما يتعلق بنشأة الهيئة التي سميت بالدولية (فرسان المعبد) التي ساهمت في تقديم الكثير من العون للصليبيين في تلك الفترة، وتمثلت هذه الهيئة بدور حربي ضد المسلمين من خلال بنائهم للقلاع والحصون التي تمكنهم من احتلال تلك المناطق في بلاد الشام، لذا تعد تلك المعلومات المتواجدة في كتابات الإدريسي عن هيئة الداوية المتركزة عن دورهم فيما يخص القلاع والحصون في تلك الفترة كأقدم إشارات وردت من جانب مؤلفات الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام.[٨] لقد شارك كل من الفرنسيين الصليبيين هما: (هيو دي باين) (Hugues de Payns) و(جودفري دي سانت أومير) (Godfrey of Saint-Omer) في تأسيس هيئة الداوية عام ٥١٢ هـ/ ١١١٨م بموافقة البابا الذي أعطاها الشرعية في تأسيس هذه الهيئة وعلى المهمات المنوطة لها خلال المجمع الديني المسيحي الذي انعقد في تروي (Troy) في عام ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨م، وانهالت الهبات والمنح والعطايا على الداوية حتى حققت ثراءً عظيمًا.[٩]

وبفترة قصيرة أصبحت هذه الهيئة قوية وغنية بانضمامها الكثير من الشخصيات الهامة في أوروبا مثل النبلاء الشبان، وتلقت الكثير من المساعدات والأموال من جميع بقاع أوروبا بعد أن كانت بدايات هذه الهيئة مقتصرة على كمية محدودة من الإمكانيات، لذلك فقد مهدت لها لأن تصبح ذات مكانة مهمة ومعلنة عن نفسها بأنها حامية للمسيحيين ومصالحهم في سبيل ذلك حققوا الكثير من الانتصارات في معاركهم وكان لهم دوراً مفصلياً في الصراع الذي ظهر واستمر بين المسلمين والصليبيين.[١٠]

---

[٦]أبو القاسم المستعلي بالله أحمد بن معد بن الظاهر بن علي بن منصور (١٠٧٤ - ١١٠١) كان تاسع الخلفاء الفاطميين في مصر والمغرب والإمام التاسع عشر عند الإسماعيلية المستعلية، ولد في القاهرة في سبتمبر سنة ١٠٧٤ م وتولى بعد موت أبيه المستنصر بالله متخذا لقب المستعلي بالله، وبويع في يوم عيد الغدير، في ٣ يناير ١٠٩٥م. في عهده وقعت اشتباكات ومعارك ما بين أمير جيشه ووزيره الأفضل شاهنشاه بن بدر الدين الجمالي والصليبيين في بلاد الشام، استطاع الصليبيون بها الاستيلاء على القدس مجددا.

[٧] الذيب محمد: حكاية شعب أراد الحياة، دار الفارابي للنشر، بيروت، ١٩٩٣م، ص ١٦٣؛ إيهاب الحضري: حواديت المآذن. التاريخ السري للحجارة، الفؤاد للنشر والتوزيع، القاهرة، ص ٥٧.

[٨]عوض محمد مؤنس: الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ص ٣٥.

[٩]السرجاني راغب: قصة الحروب الصليبية، مرجع سابق، ص٣١٥؛ أيوب الطيب: صلاح الدين والطوق الحجري من كلير مونت إلى حطين، يسطرون للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٧م، ص ١٢٣، ١٢٤.

[١٠] المغلوث سامي بن عبد الله بن أحمد: أطلس تاريخ الدولة العباسية، المرجع السابق، ص ٤٢٤.

كان شعار الهيئة الداوية (حماية المسيحيين ومصالحهم) لكن سرعان ما تحولت إلى قوة عسكرية خاضت فيها معارك خطيرة باسم المسيحيين ضد المسلمين في بلاد الشام، وحققت سيطرتها على الكثير من الحصون والقلاع خلال فترة الحروب الصليبية [١١]بعد الاحتلال الصليبي لبيت المقدس نفذ الكثير من الاعتداءات على شكل تغيرات أحدثت على قبة الصخرة أدى إلى تحويلها إلى كنيسة لاتينية وسميت بمعبد السيد، واستعملوا المسجد الأقصى لصالحهم وأطلقوا عليه اسم: " معبد سليمان" وتم تقسيمه على ثلاثة أقسام، القسم الأول تحوّل إلى كنيسة والقسم الثاني خصِّص لفرسان الداوية بينما القسم الثالث تم تحويله ليكون مستودعًا لذخائرهم، بالإضافة إلى جعلهم تلك السراديب الموجودة تحت المسجد اسطبلًا لحيواناتهم. [١٢]

نجد إشارات واضحة في كتابات الإدريسي حول هذا الاعتداء المشين والخطير على أحد المقدسات الإسلامية، فعندما تحدث عن المسجد الأقصى فإنه خصّص الجزء المحدد لسكن فرسان الداوية هناك فذكر: (فلما افتتحها الروم وبقي بأيديهم إلى وقت تأليفنا لهذا الكتاب صيروا هذا المسقف من المسجد بيوتًا يسكنها الجيل المعرفون بالداوية ومعناه خدام بيت الله)[١٣] ويؤخذ على ما ذكره الإدريسي بأنه استعمال وجهة نظر الصليبيين في توصيفه للهيئة الداوية عندما أشار إليهم بأنهم خدم بيت الله، لكن ربما أخطأ الإدريسي في توصيفه لهذه الهيئة الحربية كونه عاش في بلاط روجر الثاني. وعلى الرغم من هذا الخطأ فإن ذكر هذه الهيئة الحربية في كتابات الإدريسي تعتبر ذات أهمية كبيرة لندرة تواجد إشارات عنهم في مؤلفات الجغرافيين المسلمين في ذلك العصر عدا بعض مؤلفات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مملكة بيت المقدس تحت حكم الصليبيين خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي قد تناولت الهيئات الحربية الصليبية مثل: الاسبتارية والداوية.[١٤]

مع مرور الزمن تحولت هذه الهيئة إلى هيئة حربية قوية مكنتها من توفير الدعم والحماية لبيت المقدس، لكن بالمقابل استمرت بممارستها الخطيرة مع المسلمين بطريقة متناقضة لادعاءاتها بأنها هيئة دينية ذات أهداف سامية وبالتالي ساعدت المعلومات التي وردت في كتابات الإدريسي على معرفة نشأة هذه الهيئة وأهدافها الحقيقية تجاه المقدسات الإسلامي.

---

[١١] الطيب أيوب: صلاح الدين والطوق الحجري من كليرمونت إلى حطين، يسطرون للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٧م، ص١٢٤.

[١٢] يوسف جوزيف نسيم: الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦ م، ص ١٦.

[١٣] الإدريسي: محمد شريف (ت ٥٦٠ه): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٣٦٠.

[١٤] الإدريسي، المصدر نفسه، ص ٣٦٠.

وصف الإدريسي لبعض القلاع الصليبية في بلاد الشام:

تضمن الإدريسي في كتابه عن القلاع الصليبية القلعة التي أقامها الأمير الصليبي (رايموند دي سانت جيل) (Raymond de Saint Gilles) الواقعة في مدينة طرابلس بشمال لبنان، وبسبب نجاح الأمير الصليبي في السيطرة على مدينة جبيل في لبنان عام ٥٠٠هـ/١١٠٤م، قد أصرّ على المضي قدماً بالسيطرة على مدينة طرابلس الخاضعة لنفوذ بني عمار وتحويلها إلى إمارة صليبية له ولأسرته من بعده بطريقة وراثية[١٥] . وفي أثناء معاركه في السيطرة على مدينة طرابلس استعمل كتلة صخرية في الجهة المقابلة على الضفة اليسرى من نهر أبي علي عرفت باسم: (تلة الحجاج)، وقد سماها المسلمون باسم قلعة (صنجيل) نسبة إلى ذلك الأمير الصليبي.[١٦] تميز الموقع الذي تقع عليها القلعة بأهمية كبيرة لأسباب عدة :

- يشرف على مدينة طرابلس ومحيطها.
- من السهل مراقبة الجنود الموجودين فيها.
- مراقبة كل التحركات التي تصل إلى مدينة طرابلس من الخارج.
- قدرة تحكم الصليبيين بالمياه في مجرى النهر لما تتيح لهم من تأمين احتياجاتهم.
- الموقع المرتفع الحصين لهذه القلعة أعطى تفوقًا عسكريًا على المدينة الساحلية.[١٧]

ويبدو أن الأمير الصليبي رايموند دي سان جيل قد حصل على دعم من جانب الإمبراطور البيزنطي (الكسيوس كومنين) (Alexius I Comnenus) (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م-٥١٢ هـ /١١١٨ م)، وهذا الأخير كان قد أرسل له ما يحتاجه من دعم عن طريق جزيرة قبرص الواقعة في مواجهة الساحل اللبناني السوري، هذا الدعم المقدم قد ساعد في تدعيم القلعة وتزويدها بكل ما تحتاج من التحصين والرجال والأسلحة اللازمة. وفي عام ٥٠٠هـ/١١٠٤ م أصبحت هذه القلعة جاهزة بأبنيتها وتحصيناتها وتحولت إلى مكاناً تمثل تهديداً لبني عمار حكام طرابلس، لأن هذه القلعة تعد بمثابة القلعة الأولى التي أقامها الصليبيون في المنطقة، ومن بعدها تعددت قلاعهم بأعداد كبيرة في أنحاء بلاد الشام في

---

(15) Fetellus, Description of the Holy Land, Trans.by Jr. Macpherson P. P.T. S, Vol. V, London 1896, p. 39; Benjamin of Tudela, Travels of Benjamin of Tudela, in: Wright, early Travels in Palestine, London 1848, p 83; John of Wurzbueg, p 12; Theoderich, Theoderich's Description of the Holy places, Trans, by Aubrey stewart, P.PT.S.,Vol.V, London 1896, p. 30.

(١٦) عوض محمد مؤنس، الجغرافيون والرحالة المسلمون، المرجع السابق، ص ٣٧.

(١٧) تدمري عمر عبد السلام: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور. عصر الصراع العربي البيزنطي والحروب الصليبية، جـ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٤٠٨؛ محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون، المرجع السابق، ص ٣٧.

عصر الحروب الصليبية على مدى القرنين السادس والسابع الهجريين، الثاني عشر والثالث عشر الهجريين.[١٨]

كما تحدث الإدريسي مدينة عرقة [١٩] في كتاباته إذ ذكر بأنها: (مدينة عامرة حسنة في سفح جبل قليل العلو ولها في وسطها حصن على قلعة عالية ولها ربض كبير، وهي عامرة بالخلق كثيرة التجارات، وأهلها مياسير وشربهم من ماء يأتيهم في قناة مجلوبة من نهرها، ونهرها جار ملاصق لها وبها بساتين كثيرة، وفواكه وقصب سكر، وبها مطاحن على نهرها المتقدم ذكره، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال، وحصنها كبير، وعيش أهلها خصيب رغد، وبناؤها بالجص والتراب والخير بها كثير) .[٢٠]

بالمقابل لا يوجد معلومات واضحة وتفصيلية في كتابات الإدريسي عن هذه القلعة بالرغم من كونها من أهم قلاع طرابلس خلال تلك الفترة من الحروب الصليبية. اذ تم ذكر موقعها على المنحدرات الشمالية من لبنان أسفل الوادي المؤدي إلى حمص وحماة، وتبعد عن بعلبك بمسافة ستة وتسعين ميلًا وعن جزيرة أرواد بمسافة خمسة وأربعين ميلًا[٢١] . لقد تميزت قلعة عرقة بتحصينها ومناعتها على نحو اعترف به المؤرخ المجهول صاحب الجستا في وقت مبكر من قدوم الصليبيين إلى بلاد الشام، وقد استولى عليها الصليبيون بقيادة الأمير الصليبي (وليم جوردان) في عام ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م.[٢٢]

وفي عام ٥٦٦ هـ/١١٧٠م عهد الملك الصليبي عموري الأول (٥٥٩-٥٧١ هـ/ ١١٦٤-١١٧٦م) بأمر قلعة عرقة إلى هيئة الاسبتارية، وكان ذلك خلال مدة وصايته على إمارة طرابلس عندما كان ريموند الثالث (٥٤٧ هـ/١١٥٢ م- ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) في الأسر، وعندما عاد من أسره ثبت تلك المنحة للهيئة المذكورة، ومنحت لهم امتيازات إضافية، ولاحقاً أصيبت هذه القلعة بالتخريب بسبب الزلازل التي دمرت العديد من المناطق في بلاد الشام، مثلما حدث عام ٥٦٥هـ/١١٧٠م، وكذلك عام ٥٩٧ هـ/١٢٠١م، لذلك فقد حاول فرسان الاسبتارية إجراء أعمال الترميم والإصلاح للبنى المعمارية المتهدمة بسبب تلك الزلازل بهدف

---

[١٨] أنَّا كومنينا، الكسياد، ترجمة حسن حبشي، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٣١٠.

[١٩] عِرْقَةُ: بكسر أوله، وسكون ثانيه، بلدة في شرقي طرابلس، بينهما أربعة فراسخ، وهي في سفح جبل، بينها وبين البحر نحو الميل، وعلى جبلها قلعة لها، وقال أبو بكر الهمذاني: عرقة بلد من العواصم بين رفنيّة وطرابلس، ينسب إليها عروة بن مروان العرقي الحرّار، وإلى عرقة ينسب أبو الحسن أحمد بن حمزة بن أحمد التنوخي العراقي. للمزيد من المعلومات ينظر. صفي الدين: عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩ هـ): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢ هـ، جـ٢، ص ٩٣٣؛ ياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ): معجم البلدان، جـ ٤، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، ص ١٠٩.

[٢٠] الإدريسي: نزهة المشتاق، المصدر نفسه، ص ٣٧٣، ٣٧٤.

[٢١] الإدريسي، المصدر نفسه، ص ٣٧٣.

[٢٢] مؤلف مجهول: (ت ٣٧٢): حدود العالم من المشرق إلى المغرب، ترجمة: السيد يوسف هادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ص ١١٠؛ أبي الفداء: عماد الدين (ت ٧٣٢هـ): المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، مصر، (د.ت)، ص ١١٠.

تقوية مناعتها وتحصينا من جديد في مواجهة الصراع مع المسلمين[٢٣] . بقيت هذه القلعة تحت هيمنة وسيطرة الصليبيين حتى تم تحريرها من قبل السلطان المملوكي السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عام ٦٦٩ هـ/١٢٧١م.[٢٤]

قلعة (بغراس) في ضوء كتابات الإدريسي:

لقد تناول الإدريسي في كتاباته أيضاً قلعة (بغراس)[٢٥] ، وهي من قلاع إمارة أنطاكية الصليبية فقال: (ومن أنطاكية إلى حصن بغراس اثنا عشر ميلا في شمالها، وبه منبر وبشر كثير، وهو على طريق الثغور، وبين حصن بغراس والاسكندرونة تسعة أميال، وهذه الحصون في الساحل تتلو السويدية ثم إلى الإسكندرية ثم إلى بيأس ثم إلى الستينات ثم إلى المثقب ثم إلى نهر المصيصة ثم إلى نهر آذنة ثم إلى طرسوس وهذه كلها على توال في الساحل من الإسكندرونة إلى بياس) [٢٦]. من خلال تحليل وقراءة نصوص الإدريسي حول هذه القلعة نجد أنه لم يعط معلومات واضحة عن تاريخ هذه القلعة كما أنه لم يشير في كتاباته عن دور هذه القلعة في الصراع الإسلامية الصليبي.

بدعم من أمراء الإمارات الصليبية فقد حصلت هيئة الداوية على قلعة بغراس في عهد الملك الصليبي عموري الأول، وهي سياسة اتبعها منذ عام ٥٦٣ هـ/ ١١٦٧م، وقد منح الأمير (بوهيمند الثالث–) (Bohemond III ٥٥٨ هـ /١١٦٣ م –٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م) الهيئة الداوية العديد من المواقع حول بغراس لتأمين تدعيم دفاعات إمارة أنطاكية، وقد استولى المسلمون على هذه القلعة في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي عام(٥٨٤هـ/١١٨٨م)، حيث دافع الداوية دفاعاً مستميتاً في مواجهة الجيش الأيوبي ولاحقاً عمل صلاح الدين الأيوبي على تخريب بغراس.[٢٧]

---

[٢٣] عوض محمد مؤنس، الجغرافيون والرحالة المسلمون، المرجع السابق، ص٣٩.

[٢٤] العناني جاسر علي: فتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس بين السياسة والحرب، أمواج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٢م، ص ٢١٣؛ شريف عبد الحميد محمد الهادي: نيابة طرابلس الشام في عصر سلاطين المماليك (٦٨٨-٩٢٢هـ/ ١٢٨٩-١٥١٦م) دراسة تاريخية، دار التعليم الجامعي للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٨م، ص ٢٥.

[٢٥] بغراس: حصن مهم على درب بغراس الذي يحمل اسم الحصن، كما يسمى درب أنطاكية، ويقع حصن بغراس شمال أنطاكية بأربع وعشرين كم، وقد شيد هذا الحصن على عدة مستويات صخرية بسبب شدة انحدار السفوح الصخرية، وترتبط بعضها ببعض بممرات وسلالم، وقد دعم السور الخارجي بأبراج نصف دائرية و مزاغل. للمزيد من المعلومات. انظر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، المصدر نفسه، جـ ١، ص ٤٦٧؛ محمود أحمد درويش: موسوعة رشيد. التاريخ والاستحكامات الحربية، جـ١، مؤسسة الأمة العربية للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠١٧م، ص ٣٦٠.

[٢٦] الإدريسي: نزهة المشتاق، المصدر نفسه، ص ٦٥٢.

[٢٧] ابن الأثير: عز الدين (ت ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، تحقيق: محمد العرب، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠١٣م، جـ ١٢، ص ١١؛ المقدسي: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥هـ): كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جـ٣، دار الكتب العلمية، بيروت، (د-ت)، ص ٢٤، ٢٥؛ عماد الدين الأصفهاني (٥٩٧هـ): حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس، دار الكتب العلمية، بيروت،(د-ت)، ص١٦٠.

بنى الصليبيون هذه القلاع والحصون في هذه المنطقة لأهداف استراتيجية من الناحية العسكرية، وقد وجدوا أنفسهم في بيئة عربية إسلامية، فكان لابد من بناء هذه المباني التي تتميز ومناعتها ضد الأعداء وللتحصن فيها نظراً لأن عددهم كان أقل بكثير من عدد المسلمين، اذ وجدوا أنفسهم محاصرين في هذه البيئة، لذلك قاموا بإيجاد الحلول لهذه المشكلة من خلال السيطرة على الأراضي العربية وبناء القلاع والحصون في مناطقه الهامة والمنيعة .[٢٨]

لابد من الإشارة إلى أن الإدريسي لم يشير إلى عدد من القلاع والحصون في هذه المنطقة ربما لأنه لم يزرها بشكل كامل أو اعتمد في معلوماته على مصادر أخرى والتي لم تشير بشكل واضح على كل المباني والمواقع الهامة في هذه المنطقة في تلك الحقبة ، فعلى سبيل المثال لا نرى معلومات تتعلق بقلعة البروديل الواقعة على الطريق الواصل بين مدينة نابلس مع القدس، فلا نرى أي إشارات عن موقعها الجغرافي أو لماذا تمت تسميتها بهذا الاسم، بالإضافة إلى أنه لم يتحدث عن الحياة الاجتماعية والعسكرية فيها، وهذا يعد مثالاً واضحاً حول التساؤلات التي تطرح على طبيعة نصوص الإدريسي حول هذه المنطقة. كما أنه لم يتحدث في كتاباته عن قلعة صلاح الدين (صهيون)، وهي على مسافة تبعد ما يقارب خمسة عشر ميلاً إلى الشمال الشرقي من مرفأ اللاذقية، تقع قلعة صلاح الدين أو ما يسمى بقلعة صهيون، وهي إحدى القلاع المهمة الواقعة فوق جرف صخري متطاول يتواجد بين خانقين عميقين في منطقة جبال الساحل في سورية، واهتم البناؤون في عهد الفرنجة بتقوية وتدعيم الواجهة الشمالية الشرقية لها المرتكزة على الهضبة، وتم إنشاء برج محصن ضخم مزوّد بحصون أنصاف دائرية بحيث تكون واضحة وبارزة .[٢٩]

الخـــاتمة:

من خلال ما تمت دراسته للجوانب الحربية في بلاد الشام إبان الحروب الصليبية من خلال كتاب: "نزهة المشتاق" للإدريسي، أمكن التوصل إلى عدد من النتائج، من أهمها:

- أوضح البحث أن القلاع التي أقامها الصليبيون على امتداد وجودهم في بلاد الشام مثلت أحد أشكال تغيير هوية المنطقة على المستوى الطوبوغرافي، وفرضت الهيمنة للاحتلال الصليبي لبلاد المسلمين، وطالما بقيت السيطرة الصليبية على تلك الحصون والقلاع فقد استمر احتلالهم ووجودهم، وعندما فقدوا السيطرة على تلك المراكز الدفاعية فقد انهزموا أمام المسلمين مما يدلّ على أهميتها ودورها الكبيرين آنذاك.

---

[٢٨] عوض محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون، المرجع السابق، ص٤١، ٤٠.

[٢٩] حول هذه القلعة أنظر: فولفغانغ، مولر- فينر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة: محمد وليد الجلاد، ومراجعة: سعيد طيان، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٢م، ص ٥٠- ٥١.

- أظهر البحث أهمية المعلومات والإشارات التي وردت في كتابات الجغرافيين المسلمين الذين وفدوا إلى بلاد الشام في ذلك العصر عن تلك القلاع الصليبية؛ إدراكًا منهم بخطورة أمرها ودورها في دعم الكيان الصليبي لأراضي المسلمين.
- أشار الإدريسي في كتاباته حول الاعتداء المشين على أحد المقدسات الإسلامية، إذ خصّص الجزء المحدد لسكن فرسان الداوية، كما تم ذكر الهيئة الحربية التي تعد ذات أهمية كبيرة لندرة تواجد إشارات عنها في مؤلفات الجغرافيين في تلك الفترة، كما تعد المعلومات حول هيئة الداوية ودورهم فيما يخص القلاع والحصون في تلك الحقبة كأقدم إشارات وردت من جانب مؤلفات الجغرافيين المسلمين الذين قدموا إلى بلاد الشام.
- تشكل كتابات الإدريسي عن الجوانب الحربية والقلاع والحصون الصليبية في بلاد الشام من أهم كتابات الجغرافيين المسلمين الأوائل الذين قدموا إلى بلاد الشام وأدركوا أهمية دور تلك القلاع في الصراع الإسلامي الصليبي.
- نشأت القلاع والحصون بسبب الأوضاع غير المستقرة في المنطقة خلال ذلك العصر بين الصليبيين والمسلمين، حيث مكَّنت من تثبيت نفوذ الصليبيين بالمنطقة، وشكلت مصدراً مهماً للنفوذ والقوة للإمبراطوريات والمماليك خلال العصور القديمة، كما لعبت القلاع والحصون دوراً مفصلياً في تأمين الحماية المستدامة ضد أي تهديد متمثل بالتسلل أو الاعتداءات أو الهجمات المفاجئة.
- أفادت إشارات (الإدريسي) في إلقاء الضوء على أوضاع المسلمين والصليبيين في بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.
- وأخيراً توجد عدة ملاحظات في كتابات الإدريسي للساحل الشامي، فلو افترضنا ان الجغرافي الإدريسي قد قام بنفسه بزيارة الأماكن التي وصفها في كتابه حول ساحل بلاد الشام فإن الأمر يبدو أنه قد قام بزيارة بلاد مصر أولاً، ومنها الى سيناء ثم الى فلسطين، واتجه شمالا الى طبريا ثم دمشق، ومنها الى بعلبك وطرابلس، ثم حمص باتجاه الساحل السوري الحالي، أي طرطوس وأرواد وبانياس وقلعة المرقب، ثم جبلة واللاذقية، ثم اتجه شمالا مسايرا لخط الساحل إلى اسكندرونة والسويدية وأنطاكيا؛ إلا أنه تم إغفال بعض القلاع والأماكن ضمن مساره المذكور، ومن ثم من الممكن أنه لم يقم بزيارة كل هذه الأماكن، وإنما اعتمد في كتاباته على معلومات وردت وتناقلت عن وصف هذه الأماكن من الآخرين المعاصرين له. وبالرغم من عدم شمول كتاباته على الكثير من المواقع والقلاع والحصون في الساحل الشامي، فإن عمل الادريسي يقدم فائدة كبيرة لنا عن جوانب أخرى تتعلق بالوضع العام لبلاد الشام من حصونها وقلاعها ودورها في الحروب التي دارت بين المسلمين والصليبيين طيلة قرنين من الزمن تقريباً.

ثبت المصادر والمراجع

المصادر العربية:

١. ابن الأثير: عز الدين (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م): الكامل في التاريخ، تحقيق: محمد العرب، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٢. أبي الفداء: عماد الدين (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م): المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، مصر، (د.ت).

٣. أبي شامة المقدسي: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الكتب العلمية، بيروت، (د-ت).

٤. الإدريسي: محمد شريف (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٥. الأصفهاني: عماد الدين (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م): حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس، دار الكتب العلمية، بيروت، (د-ت).

٦. صفي الدين: عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١م.

٧. مؤلف مجهول: (ت ٣م٧٢هـ/ ٩٨٢): حدود العالم من المشرق إلى المغرب، ترجمة: السيد يوسف هادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٨. ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (المتوفى: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

المراجع العربية:

٩. أبو ديَّة أيوب: حروب الفرنج حروب لا صليبية، الفارابي للنشر، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

١٠. تدمري عمر عبد السلام: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور. عصر الصراع العربي البيزنطي والحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١١. الحضري إيهاب: حواديت المآذن. التاريخ السري للحجارة، الفؤاد للنشر والتوزيع، القاهرة.

١٢. حميد نهى: مقاومة حمص للغزو الصليبي منذ بدايته حتى معركة حطين (٥٨٣- ٤٩١ هـ- ١١٨٧- ١٠٩٦م). مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية- سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، ٤٢(٤)، ١٥٥- ١٧٢.

١٣. درويش محمود أحمد: موسوعة رشيد. التاريخ والاستحكامات الحربية، مؤسسة الأمة العربية للنشر والتوزيع. مصر، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

١٤. الذيب محمد: حكاية شعب أراد الحياة، دار الفارابي للنشر، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٥. سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث، أطلس تاريخ الدولة العباسية، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

١٦.السرجاني راغب: قصة الحروب الصليبية من البداية حتى عهد عماد الدين زنكي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
١٧.الطيب أيوب: صلاح الدين والطوق الحجري من كليرمونت إلى حطين، يسطرون للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١٧م.
١٨.العروسي محمد: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
١٩.العناني جاسر علي: فتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس بين السياسة والحرب، أمواج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.
٢٠.عوض محمد مؤنس، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
٢١.فولفغانغ، مولر – فينر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة: محمد وليد الجلاد، ومراجعة: سعيد طيان، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
٢٢.مقدم محمد عبد الله: الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية، دار العالم العربي، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
٢٣.الهادي شريف عبد الحميد محمد: نيابة طرابلس الشام في عصر سلاطين المماليك (٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م– ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) دراسة تاريخية، دار التعليم الجامعي للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.
٢٤.يوسف جوزيف نسيم: الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

المراجع الأجنبية:

25. Benjamin of Tudela, Travels of Benjamin of Tudela, in: Wright, early Travels in - Palestine, London 1848.
26. Fetellus, Description of the Holy Land, Trans.by Jr. Macpherson P. P.T.S, Vol. V, London 1896.